العرب والعربية : حيث لا يتوقعان ...

ارشاد محمد جميل بيرم
لبنان

يتوهم سواد الناس أن العرب قبل الاسلام كانوا يقيمون فى شبه جزيرتهم فحسب ، وان هؤلاء ما كادوا يعتنقون الاسلام حتى اكتسحوا العالم لاول مرة ، وزودوه بحضارة زاهرة . والواقع أن وثبة العرب الاسلامية وان كانت أعظم وثبة لهم الا أنها لم تكن الاولى من نوعها ، وأن شبه جزيرة العرب وان كانت مهد القحطانيين والعدنانيين الا انها لم تكن موطن العرب الوحيد .

فمنذ آلاف السنين حتى ظهور الاسلام كان للعرب موجات صادرة عن مهدهم رافقتها وثبات وحضارات اندثرت قبل عهد الجاهلية وخلفت فى بلاد الشام والعراق ومصر وغيرها بقايا كثيرة من العرب ومن لغتهم ، هذا فضلا عما كان لهم من فتوحات ومدنية يمنية .

فالتنقيبات الاثرية التى أجريت بفلسطين أكدت صحة ما قاله روبنسن فى كتابه (تاريخ اسرائيل) وهو « ان العرب جاءوا بلاد الشام موجات متتابعة منذ ثلاثة آلاف سنة من ولادة السيد المسيح .» وكانوا فى داخلها يعرفون بالعموريين ، وفى ساحلها بالكنعانيين .

وقد ورد ذكرهم باسمهم الصريح فى رقيم أصدره شلمناصر الاشورى لمناسبة حملته على دمشق سنة 854 ق م. وكذلك فى تاريخ الاسكندر المكدونى الكبير الذى كتبه لاريانوس حيث قال :

« ان الاسكندر ابان محاصرته لمدينة صور سنة 328 ق م رغب فى الترفيه عن نفسه فتوغل فى طلب الصيد ، ووجد نفسه بين قوم من العرب . »

هذا بالاضافة الى أن التوراة أتت كثيرا على ذكر العرب ، وأن التاريخ حافل بذكر دول عربية ذات شأن قبل المسيح ، كالانباط فى بطرا (الاردن) قبيل القرن الرابع للميلاد ، والتدمريين (سوريا) سنة 106 ق م. والاباجرة فى الرها سنة 132 . وقد عاصر أشهر ملوكهم أبجر الخامس السيد المسيح ، والايطوريين فى القرن الثانى ق م. وكانت عاصمتهم مجدل عنجر (لبنان) وقد استمر حكمهم حتى نهاية القرن الاول للميلاد .

وكانت للعرب دولة أخرى فى حمص أشار اليها جرجى زيدان فى كتابه « العرب قبل الاسلام » حيث قال : « ولما قدم بومبيوس على مصر فى القرن الاول ق. م. كانت حمص فى حوزة دولة عربية » وقد أقرها على ما كانت عليه . والتنقيب الذى قام به الاب لامنس اليسوعى سنة 1900 فى حمص كشف عن عدد من قبور أمراء هذه الدولة تعود الى القرن الثانى للميلاد . مما يشير الى طول مدة حكمها .

وأما فى العهد الرومانى ، فبالاضافة الى دولة حمص العربية ، فقد أقام التنوخيون أمارة أخرى فى مشارف الشام خلفهم عليها زملاؤهم بنو سليم من قضاعة باسم الضجاعمة ، بينما ملك عرب الصفا حوران وما يليها ، واستولى غيرهم على ديار بكر وديار ربيعة (تركيا) . وكانت هذه البلاد تحمل أسماء أخرى فغلبت عليها من بعد أسماء القبائل العربية التى سيطرت عليها .

ثم خلف هؤلاء واولئك فى عهد البيزنطيين أمراء عرب آخرون ، وأشهرهم آل غسان فى بلاد الشام ، وآل لخم فى العراق . وفى الحروب المتصلة التى كانت تدور وقتئذ بين البيزنطيين وبين الفرس كان آل غسان أنصارا للروم بينما كان آل لخم أنصارا للساسانيين .

وهذا ما أوحى الى الكونت سفورزا الايطالى بأن يقول فى كتاب له عن العرب صدر سنة 1938 : « لو سألت الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية)

لعامت أنها كانت تسيطر على سوريا على اعتبار أنها قطر عربى يتولاه أمراء العرب الذين كانوا وشعبهم يؤلفون الكثرة بين السكان .» وكانت مصر عرضة ايضا لموجات أخرى من جزيرة العرب : فقبل 2280 سنة من الميلاد حكم فيها الهيكسوس المعروفون بالملوك الرعاة مدة 600 عام تقريبا . ومنذ ذلك حفلت بالعنصر العربى كما بيناه فى كتابنا « العروبة والشعوبيات » .

وقد ظهر الاسلام فى ذلك العهد فكان وجود العرب فى بلاد الشام وفى العراق ومصر فى عداد الاسباب التى أمنت له هناك ذلك الفوز الباهر ـ الفوز الذى كان منطلقا لانتصاراته فى البلاد الاخرى ، ولنشر لغة القرآن . ثم دالت دولة العرب ، ولكن لغتهم ظلت منتشرة فى البلاد الواسعة التى انتشر فيها دينهم ، وكذلك ظلت مفرداتها واصطلاحاتها موجودة فى لغات العالم الذى دان للتمدن العربى خلال ثلاثة أجيال تبتدىء بالقرن الثامن الهجرى ، وتنتهى فى ختام القرن العاشر .

وهذه أمور وان خفيت على سواد الناس الا ان الوانها لا تخفى على المثقفين ، ولكن الذى يعتبر فى حكم المجهول عند الكثرة ، الا ما ندر ، هو ذاك الذى عثرنا عليه فى ثنايا التاريخ من وجود شراذم من العرب فى بلاد كثيرة ، لا يتوقع أحد أن يسمع فيها اللغة العربية ، أو أن يرى فيها العنصر العربى .

فياقوت الحموى المتوفى سنة 626 هـ وصاحب كتاب «معجم البلدان» ذكر فى سياق حديثه عن الصين نقلا عن مخطوط وصفه بأنه عتيق ألفه أبو دلف مسعر ابن المهلهل ما شاهده أبو دلف خلال رحلته الى بلاد الترك والصين والهند ، فذكر انه عثر على قوم من العرب فى تلك الرحلة هم من بقايا الفاتحين . وقد استهل كلامه فى أسباب الرحلة بما يلى :

«ولما نبا بى وطنى ، ووصل بى السير الى خراسان ضاربا فى الارض أبصرت ملكها والمرسوم بامارتها نصر ابن أحمد السامانى عظيم الشأن ، كبير السلطان ، يستصغر فى جنبه أهل الطول ، وتخف عنده موازين ذوى القدرة والحول ، ووجدت عنده رسل قالين بن الشخير ملك الصين راغبين فى مصاهرته ، طامعين فى مخاطبته ، يخطبون اليه ابنته ، فأبى ذلك واستنكر لحظر الشريعة له . فلما أبى ذلك راضوه على أن يزوج بعض ولده بابنة ملك الصين فأجاب الى ذلك ، فاغتنمت قصد الصين معهم» .

ثم شرع يتحدث عن رحلته فى بلاد الترك فيما وراء النهر ، تلك البلاد التى اجتازها فى طريقه الى الصين واصفا أحوال كل من قبائلها وأديانهم وعاداتهم ومحددا عدد الايام التى قضاها فى اجتياز ربوعها . فتحدث عن الخركاه ، فالطخطاخ ، فالبجا ، فالبحناك فالجكل ، فالبفراج . وقال عن هؤلاء : «ولهم ملك عظيم الشأن يذكر أنه علوى ، وأنه من ولد يحيى بن زيد . وعنده مصحف مذهب على ظهره أبيات شعر رثى بها زيد . وهم يعبدون ذلك المصحف . وزيد عندهم ملك العرب ، وعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، عندهم اله العرب . لا يملكون عليهم أحدا الا من ولد ذلك العلوى البفراجى المشار اليه .» .

ومضى بعد ذلك يتحدث عن انتقالهم ، هو وصحبه، من بلاد البفراج الى منازل قبائل التبت فالغز فالتغزغز فالخرخيز فالخزبج هؤلاء .

ثم يوالى حديثه عن القبائل الاخرى التى زارها بعد الخزلج المذكورين ابتداء من الخطلج التى يصف شدتها فى المحافظة على الاعراض الى أن يقول وهو بيت القصيد فى هذا المقال :

« ثم انتهينا الى موضع يقال له القليب . فيه **بوادى عرب ممن تخلف عن تبع لما غزا بلاد الصين** . لهم مصايف ومشاتى فى مياه ورمال . **يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ، ويكتبون بالحميرية ، ولا يعرفون قلمنا** . يعبدون الاصنام وملكهم من أهل بيت منهم لا يخرجون الملك من أهل ذلك البيت . ولهم أحكام وحظر الزنا والفسق . ولهم شراب جيد من التمر . وملكهم يهادى ملك الصين . فسرنا فيهم شهرا فى خوف وتغرير . ثم انتهينا الى مقام الباب . وهو بلد فى الرمل تكون فيه حجبة الملك . وهو ملك الصين. ومنه يستأذن لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل الترك وغيرهم .»

وينهى صاحب الرحلة حديثه بالوصول الى مدينة سندابل التى قال عنها بأنها قصبة الصين ، وهو يريد بذلك العاصمة .وبعد أن وصفها قال :

« فدخلت على ملكهم فوجدته فائقا فى فنه ، كاملا فى رأيه ، فخاطبه الرسل بما جاءوا به من تزويجه ابنته من نوح بن نصر ، فأجابهم الى ذلك ، وأحسن الى والى الرسل . وأقمنا فى ضيافته حتى نجزت أمور المرأة ، وتم ما جهزها به . ثم سلمها الى مائتى خادم وثلاثمائة جارية من خواص خدمه وجواريه . وحملت الى خراسان : الى نوح بن نصر فتزوج بها .»

وقد عاد صاحب الرحلة الى خراسان مع موكب العروس فى طريق أخرى بين ما شاهده ، ولكنا أغفلنا ذكر العودة لانها لا تدخل فى موضوع هذا المقال .

وأتت على هذه الرحلة بضعة قرون ، وأتى على قراءتى لها حين من الدهر كنت أتساءل فيه عما اذا كان العرب المذكورون المجاورون للصين لا يزالون باقين على عروبتهم حتى اذا كانت سنة 1956 سمعت محاضرة القاها المستشرق الروسى تسترلى باللغة العربية فى بيروت وذلك خلال شهر نيسان ، فاذا به يذكر خبرا آخر من هذا القبيل حينما قال :

« وفى آسيا الوسطى بلدة يسكنها ثلاثة عشر الف نسمة لا يزالون يتكلمون اللغة العربية . ويرجح أنهم من أصل عربى .»

ثم قرأت فى مجلة الانباء السوفياتية فى عددها الخامس الصادر فى 1958/1/26 نبأ مماثلا هذا نصه : « ان مائة عائلة عربية تقطن حاضرة دجافغارى القديمة القريبة من مدينة بخارى فى اوزبكستان . وان الوثائق تثبت أن هؤلاء العرب أقاموا هناك منذ أكثر من ألف سنة .»

ولقد علقت المجلة على هذا الخبر بقولها : « لقد أصبح لهؤلاء العرب نواب فى السوفيات الاعلى «لجمهورية أوزبكستان ، وأعضاء فى مجالسها المحلية .» فهل كان العرب الحميريون الذين زارهم أبو دلف مسعر غير هؤلاء أو هؤلاء الذين نوه بهم الروس ؟ لا ندرى .

وقد أخبرنى الشاعر الشهير الاستاذ أحمد صافى النجفى أنه فى سفره من الخليج العربى الى مدينة شيراز فى جنوب ايران عثر فى بواديها على قبائل عربية لا تزال تحافظ على لغتها وتقاليدها على الرغم من عزلتها ، وحبب الى السفر الى تلك الديار لرؤيتها ، ولدراسة أحوالها .

وهناك فئة أخرى من الاخوان المجهولين غير الاسيويين الذين تحدثنا عنهم كانوا يعيشون حتى الجيل الماضى فى أمريكا . ورد ذكرهم فى كتاب « صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار » للشيخ محمد بيرم التونسى المتوفى سنة 1889 . وقد قال عنهم فى سياق كلامه عن البرازيل :

« ويوجد فيها آلاف من المسلمين أصلهم من سودان افريقية ، ولكنهم لا يعلمون الا كليات الديانة على سبيل الاجمال . كما يستفاد ذلك من رحلة عبد الرحمن بن عبد الله البغدادى الذى كان اماما فى بعض السفن المدرعة العثمانية ، وسافرت الى البصرة على طريق البحر المحيط الغربى (قبل فتح قناة السويس) على بوغاز (جبل طارق) ، وصادفتهم زوابع اضطرتهم ، عن غير قصد ، الى شطوط البرازيل . ولما خرجوا الى التفسح فى البر أقبل عليهم أقوام مسلمون ، وطلبوا ابقاء الامام عندهم لتعليم الديانة . فبقى هناك مدة . وألف رحلته المختصرة المترجمة الى التركى المسماة «مسلية الغريب» وكان سفره سنة 1282 هجرية . ولا يبعد أن يكون فى جميع امريكا أمم كثيرة من المسلمين لا يجدون من يهديهم . ولا حول ولا قوة الا بالله .»

لقد طاب لنا ان نتحدث عن اخوان لنا كانوا يسكنون فى بلاد لم نكن نتوقع أن يكون لنا فيها اخوان، ولكن الذى يؤلمنا أن هؤلاء الذين عثرنا عليهم فى طيات التاريخ ، والذين كنا نتساءل عن مصيرهم بحرارة قد خسرناهم فى القارتين الامريكيتين ، وربما خسرنا أيضا غيرهم فى آسيا وافريقيا ، وأما الباقون فى تركستان فهم عرضة لاخطار جسام لا تنسيهم لغتهم لغة القرآن فحسب ، بل قد تنسيهم القرآن نفسه .